فن العمارة: عام : وقفة تأمل بعد رحيل المعماريالعربي عبد الباقي إبراهيم

بقلم هاني بتاريخ ٢٠٠٣/١٠/٥ (٥٣ قراءة)

د. علي الثويني

أنطفأت قبل أيام شمعة أحد أعمدة العمارة العربية المعاصرة من دون أن تنطفئ جذوة فكره، فقد رحل عن دنيانا المعماري المصري عبد الباقي محمد إبراهيم بعد نصف قرن من رحلة العطاء التي اتسمت بالجهد والعرق وتمخضت عن تكريس خطاب معماري معاصر مستمد من روح العمارة الإسلامية ومشرئب يرنو الى إحياء ذلك الكنز التراثي، بفلسفة مستمدة من جوهر الدين الحنيف، لا يحدها مكان ولا زمان ومجردة من مفردات وشطحات التغريب وكذلك المباهاة والخيلاء التي تجسدت في بعض عمائر المسلمين.

ولد المعماري عبد الباقي محمد عام ١٩٢٦ في الوجه البحري لمصر، في منطقة الدلتا، في جو قروي مفعم بروح الإيثار والجماعية والتعاونية وكان موجهه الأول أبوه الأزهري الثقافة، الذي كرس فيه الوجهة الدينية. وبعد نصيحة تلقاها من قريبه المعماري صلاح زيتون توجه لدراسة العمارة في جامعة القاهرة وكانت نقلته الأولى نحو المدينة وحياتها وقد أنهاها عام ١٩٤٩ ثم توجه في بعثة دراسية الى بريطانيا حيث أعاد دراسة الكلية من الأساس، وهي حالة نادرة في عرف من يريد الاسترزاق من تحصيله الدراسي ولاسيما في عالمنا العربي وبالذات في تلك الحقبة من الزمن حيث آثر مبدأ «في الإعادة استفادة» وأكمل دراسته في جامعة ليفربول حيث اطلع على منهج أكثر واقعية ورصانة من الذي تلقاه في مصر مما حداه أن يواصل المشوار وينهي دراسة الماجستير والدكتوراه في بريطانيا بمشوار واحد ينهيه بجلد بعد عقد من الزمان، وليختص خلالها بتخطيط الإسكان الريفي الذي جاء متناغما مع شعوره بجدوى الاستفادة من ذلك الموضوع في مصر التي تئن من مشاكل الإسكان والانفجار الديموغرافي للمدن ناهيك عن الهجرة من القرية الى المدينة. ويقول في تلك المحصلة انه تسنى له الاستفادة من دروس البكالوريوس أكثر مما تلقاه خلال تكملته لبحوث الماجستير والدكتوراه.

ولقد انخرط في الوظيفة الحكومية بالتوازي مع بعض النشاط الأكاديمي خلال سنوات الستينات، ومن خلال حيثياتها السياسية والثقافية والاجتماعية، خرج بمبدأ راسخ شاطر فيه المعماري الكبير حسن فتحي الذي التقاه وتناغم الفكر معه ووكله الأمانة وسلمه البيرق، قبل أن يرحل عام ١٩٩٠. وعودة الى هذا التيار الذي كان في بداياته خلال حقبة الخمسينات، حيث بدا كحالة من خطاب سياسي وثقافي شامل تلا مرحلة الاستقلال الوطني في العالم الإسلامي والعربي وتبناه رهط من المتنورين ومنهم المعماريون الذين شذوا عن قاعدة الجمع «المنبهر» الذي تكون في كنف الجامعات الغربية واعتبر أن التراث وحيثياته وعمارته يذكرهم دائما بالتخلف والجهل. ويمكن اعتبار شذوذ ذلك اللفيف حالة القاعدة الرصينة التي سارت متصاعدة حتى يومنا هذا وتبشر بجيل واعد، والتي تبناها حسن فتحي وعبد الباقي إبراهيم وعبد الواحد الوكيل من مصر ومحمد صالح مكية ورفعت الجادرجي من العراق وسبأ شبر الفلسطيني الذي جسد عمله في الكويت وراسم بدران من الأردن ورشيد بورويبة والأخوة منياوي من الجزائر، وغيرهم من البلدان العربية والإسلامية.

وقد يكمن الاختلاف في منحى هؤلاء المعماريين هو سجيتهم الذاتية وخلفيتهم الثقافية ومدارسهم المعمارية بالرغم من أن جلها أو كلها كانت غربية. أما المعماري الراحل فقد تبلور خطه بشكل تصاعدي تباعا، خلال سنوات السبعينات ولاسيما إبان ممارسته لعمله كخبير للامم المتحدة ومستشار تخطيطي في السعودية والكويت ودول عربية

أخرى حيث نهج المنحى المحافظ المتحرر غير المقيد بعوائق تحد من عنفوانه وذلك من الناحية المنهجية وسلفي من الناحية الفكرية والفقهية، مستندا في كل ذلك إلى النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة التي حاول تفسيرها بحيث يعتمدها كجوهر وأساس خلال المنطلقات لنظرية عمرانية ومعمارية إسلامية الروح مختلفة المظهر بحسب الزمان ومتأقلمة مع الخصوصيات والمكان خلال البيئات الأرضية المختلفة. ويقر بأن العمارة بمفهومها الشامل هي التنمية التي تسعى الى خدمة الفرد والجماعة وتستجيب لمتطلباته السكنية والإدارية والخدمية والتجارية والتعليمية والثقافية والرياضية. وأن برامجها تتحدد على قدر حاجة الفرد والجماعة وهي تنمو وتتطور مع تطور مراحل حاجاته. وان المال المستثمر هو من مال الله الذي يجب حسن توظيفه واستثماره واستغلاله مستندا إلى قول الرسول الكريم (فخير الناس من طال عمره وحسن عمله).

وقد دافع عن ذلك المنهج في سيرته الذاتية والتعليمية في جامعة عين الشمس (١٩٧٣ ــ ١٩٨٦) وكذلك عضويته في كم كبير من اللجان التخطيطية في مصر والعالم العربي ودخوله في المنظومة التدريسية في جامعات المملكة العربية السعودية ولاسيما في جامعة أم القرى وجامعة الكويت وصنعاء، وكذلك محاضراته في كثير من جامعات العالم. وقد تجسد في إخراجه لمجلة «عالم البناء» الشهرية، وكذلك من خلال نشاط مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية الواقع في مصر الجديدة في القاهرة حيث طرح مفهوم العمارة الإسلامية للمناقشة بهدف البحث عن الهوية إبان حالة الغلو وطغيان العمارة الغربية على عمارتنا الأكثر غنى والأعمق جذورا، كحالة عامة من الغلبة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية. وتساءل على الدوام عن فحوى المفهوم السائد لدى كثير من الناس عن العمارة الإسلامية وتفريقها عن عمارة المسلمين، وهل يكمن ذلك المفهوم فقط في التشكيلات والمفردات المعمارية المرتبطة بها من قباب وأقبية وعقود وزخارف أو بما يتعلق بالنسب التخطيطية والجمالية المستنبطة من التحليلات الهندسية للمساقط والمقاطع والجبهات التي تحكم عمق تلك العمارة، وأين يقع المنهج الإسلامي من كل ذلك وأين تكمن حدود ملموسيته؟

وتعرض المعماري الراحل في ما نشره وألفه ونظر له الى المدخل الإسلامي الذي يجب الولوج منه معتمدا على جوهر إسلامي مستمد من المنظومة الشاملة للإسلام كحضارة وكأسلوب متكامل للحياة وآلية متجددة للتقدم والبناء والإعمار، التي اعتمدها الإسلام في بناء الإنسان .كل ذلك يلجنا الى عالم رحب للعمران، يستنبط أحكامه من النصوص او القياس الفقهي الفاتح لمنظور العقل والنابذ لحالة النقل والتكرار المقيتة، وكذلك الرمزية والتأويل التي كان يمقتها في تفسيره للظاهرة المعمارية الإسلامية وانتقد بها المعماريين الإيرانيين لالة باختيار ونادر أردلان وكذلك منظر الفن الإسلامي الغربي تيتوس بوخارت.

وبالإضافة الى نشاطه المحموم في نشر فكره وتجربته وعمله في مصر والسعودية والكويت واليمن والعراق، فقد أخرج ١٤ مؤلفاً كان قد كتبها خلال العشرين عاما الماضية ومنها سيرة المعماريين صلاح زيتون وحسن فتحي والأخير كان قد أسهب في الإعجاب بمنهجه وألف كذلك في المنظور الإسلامي للنظرية العمرانية والمعمارية وتأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية وكذلك إشكالية الإسكان فيها، وختم ذلك الكم بكتابه الذي رأى النور بعيد رحيله بأيام وعنوانه (مشوار البحث عن أصول العمارة في الإسلام) الذي أراد أن يشرح فيها سيرته الذاتية بعد أن افتقد لمن يكتب وينظر ويبث المعلومة المدونة في عالم العمارة العربية والإسلامية بما لم يطأها أو يمارسها كثير من أقرانه من معماريي النصف الثاني لعمارة القرن العشرين من العرب المجددين.

لقد رحل الرجل رحمه الله بعد باع طويل وحمل ثقيل وفكر عميق حاملا معه غصة وعتباً مصدرها الإهمال والتهميش الذي مارسته الجهات الرسمية الغارقة في حيثيات السياسة وتوفير رغيف الخبز، غير عابئة بالمنزلة الحقيقية لهذه الطاقة الإبداعيةالتي تستحق التكريم والحظوةوالتي يكمن سوء طالعهافي عدم ولادتها في المكان والزمان المناسبين.